



لماذا قلنا من يخسر ولم نقل من يكسب، هذه أحد مفاصل مسارات الأحداث الكبرى في الشرق الإسلامي اليوم، فالكسب يمكن تحقيقه في جولات أخرى لمحاور ودول المنطقة، لكن الخسارة اليوم قد تعني سقوطاً مروعاً لهذه الدولة أو تلك إن لم يكن إيداناً بذوبانها. ما تعيشه المنطقة هو بالضبط سيناريو لعبـة الكراسي التي يدور عليها اللاعبون ويجلسون عند كل جرس إنذار، ويخـر عنـها أحد اللاعبـين خاسـراً وـتـم تصـفيـته، وهو الذي كان في الجـولة المـاضـية أحد عـنـاصـر تصـفيـة العـنـصر السابق.

الحرب على داعش (تنظيم الدولة الإسلامية) تبدو عنواناً ضخماً تمارس تحته حروب ميدانية شرسة بالوكالة العسكرية أو سياسية أو مخابراتية عميقة للغاية، فيما يدخل التنظيم منعطفاً أكبر يعتقد فيه مریدوه أنهم في لحظة قيام خلافتهم العظمى، وتصفيـة كل خصومـهم من المدرـسة السـنية الكـبرـى "المرـتـدة" وإخـضـاع جـفـراـفيـتها لـهـمـ، وإقـامـة دـار التـوـحـيدـ الكـبـرـىـ بـحسبـ تصـورـهـمـ العـقـائـديـ الـخـاصـ.

فيما تـصـعدـ اـحـتمـالـيـةـ كـبـيرـةـ جـداـ، وـهـيـ أـنـ تنـظـيمـ الدـوـلـةـ قدـ استـنـفـدـ الفـتـرةـ الزـمـنـيـةـ لـهـ فـيـ لـعـبـةـ الـأـمـمـ وـمـخـابـراتـ الـأـطـرافـ الـمـتـعـدـدـةـ، وـأـنـ لـحظـةـ تصـفيـتهـ قدـ تكونـ قـرـيبـةـ، فـيـماـ يـبـقـىـ السـؤـالـ الكـبـيرـ هلـ يـُصـفـيـ التـنـظـيمـ أمـ يـتـشـطـىـ وـيلـقـىـ عـلـىـ كـرـسـيـ جـدـيدـ فـيـ لـحظـةـ صـعـبةـ.

إن إشكالية المجموعـاتـ المـسلـحةـ المـوـغلـةـ فـيـ الانـحرـافـ العـقـائـديـ المـتـطـرفـ وـالـمـضـطـرـبةـ فـيـ مـيدـانـ تـنظـيمـهاـ العـسـكـريـ والمـطـارـدةـ منـ القـوـاتـ الغـرـبيـةـ المـحتـلـةـ وـمـنـ مـصـالـحـ الرـوـسـ وـإـيـرانـ وـالـنـظـامـ الرـسـميـ العـرـبـيـ أـنـهـاـ لـاـ تـخلـقـ لـجـسـمـهـاـ قـاعـدـةـ تـنـقـيفـ صـلـبةـ، وـلـاـ تـأـمـيـنـاـ فـكـرـيـاـ وـلـاـ سـيـاسـيـاـ، وـتـظـلـ طـرـيـدةـ مـعـرـضـةـ لـلـحظـةـ تـشـطـىـ أـوـ انـهـيـارـ أـوـ اـخـتـرـاقـ، لـأـنـهـاـ لـمـ تـطـرـحـ فـيـ الأـصـلـ هـدـفـاـ مـرـكـزـيـاـ، وـلـأـنـهـاـ لـوـطنـ قـومـيـ لـأـيـ شـعـبـ مـسـلـمـ يـعـانـيـ مـنـ اـحـتـلـالـ أـوـ اـضـطـهـادـ.

ولكنها حلقة في دوامة فكرية وعسكرية تبحث عن الأرض المحروقة أو بقاء أرض تحرق حتى تُخترق هذه الجماعة أو التنظيم ذاته، وما يشهده الشرق الإسلامي من تصدع للقاعدة واستخدام داعش في محاربتها ونقض مناطقها درس تاريخي لـ مآلات الفوضى العسكرية والسياسية في المقاومة، والتي تتخذ من التطرف الديني قاعدة تنظير لا منهج للجهاد المستقيم لـ حق المضطهدين، وفقهه الدقيق لمصالح المسلمين.

ومع أن الملا عمر – وهو من القيادات البارزة التي ولدت في الشرق بعد سايكس بيكو فقط لهذه الفوضى مبكراً وقاد من غرفة جبلية نائية مشروع مقاومة تاريخي هزم الأميركيين والناتو والمخابرات الإقليمية والعربية معاً ومات على ذلك – حاول أن يعزل مشروع طالبان الإسلامي للشعب الأفغاني عن فوضى التكفير القاعدي وأضطرابها السياسي إلا أنه لم ينجح في ذلك.

ولعل حاجة المقاومة للحاضن الوطني الاجتماعي وما عاناه الشعب الأفغاني من ويلات الحروب، وغياب الرؤية الإسلامية السياسية للمصالح الضرورية للشعب الأفغاني، وال الحاجة الضرورية لتأمين استقرار سياسي بعد الانسحاب العسكري الغربي إثر الهزيمة، وتحويل هذا النصر لمشروع سياسي كانت أحد أهم أسباب فشل طالباناليوم الذي يتزامن مع انشطارات كبرى وحرب داعشية خطيرة ضدها.

كما أن عدم حسم قيادات القاعدة البناء الفكري لها، واستقطاب أفغانستان لكتل متهجنة من الغلو حول القاعدة من مفهوم شرعي وهو دفع الصائل الدولي أو المقاومة الإسلامية الدولية للمشروع الغربي الاستعماري إلى صراع محلي مفتت مع جنود وشرطة ودوائر خدمات حكومية في عمليات راح ضحيتها مدنيون كثيرون، وساخت أقدام القاعدة فيها، ثم هي اليوم تسقى من ذات الكأس بأيدي داعش.

إن فهم مصدر هذه الجماعات وكيف تحول واقعها مع الزمن، وكيف ضربت من الداخل، وكيف تسقط اليوم مشروع طالبان إن لم تغير الحركة منهجيتها وتقرأ الواقع السياسي هو أحد معالم لعبة الشرق ودور فوضى التكفير للسلافية الطائفية، لا السلفية العالمية الراسدة في مثل هذه الأحداث الكبرى في الشرق الإسلامي، وهي مادة دراسة خصبة لا يفي بها كتاب واحد، فضلاً عن مقال.

وتحرب داعش الدولية اليوم من مهامها استثمار هذه التناقضات والفوضى وميدان المعركة لكل طرف يختلف عن الطرف الآخر، وكل يستخدم هذا المصطلح فيما تبدو مسارات اللعبة في هذه الاتجاهات، والتي سيحسمها من يجلس على الكرسي ويطرد الآخر:

1- إن أول محور واضح المعالم هو الغرب بقيادة الولايات المتحدة، وشراكة موسكو الجديدة بعد صفقة الغرب مع إيران، وقواعد الحرب لديه واضحة وهي تثبيت نظام العراق الطائفي، وتسويه الملف السوري بعيداً عن آمال الشعب وبشراكة مع الأسد أو بديل يفرزه النظام بمعادلة جديدة.

وعليه فإن خطة كيري لافروف الأخيرة تمهد لهذا السياق، وفي ذات الوقت لدى الغرب خشية من تطور فوضى داعش خارج كل الحسابات وتغيير قواعد اللعبة الأصلية، وبالتالي تسقط خلاصات التوافق الإقليمية الكبرى مع إيران في فوضى غير خلاقة لواشنطن الأقرب اليوم لإيران وجماعاتها المذهبية من أي وقت مضى.

2- المحور الثاني هو تركيا العدالة، وقد يسندها عمق ميداني للثورة السورية ومحور خليجي محدود لم ينضج بعد موقفه، وهنا قلنا تركيا العدالة لأن تركيا ليست واحدة في مثل هذا المضمار الخطير، فللمعارضة تصوراتها وإن ساندت المعارضة القومية أردوغان في القرار الحكومي العسكري لمواجهة تهديدات الأمن القومي.

لقد قررت تركيا خوض المغامرة الصعبة، ولكن بمساحة دقيقة من استثمار اضطراب المحور الآخر، لخلق لها فرصة عبور واحتراق تاريخي لا يمكن أن يُضمن.

لكن القاعدة التي اتخذتها أنقرة هي أن التقدم هو البديل الوحيد أمام مراقبة الوضع حتى لا تغرق تركيا وتُدرج لها حرباً داعش والـ"بي كي كي".

ولذلك فإن تركيا العدالة تخطط لأن تنتهي العملية العسكرية إلى ضرب إستراتيجي لمشروع دولية كوباني ومليشيا صالح مسلم المدعوم من الأسد وإيران، وقهار داعش عن حدودها، وفتح مساحة كبيرة للثوار في حدود تركيا وإقامة المنطقة الآمنة.

وقد وجدت تركيا إعلان الحرب على داعش هو بوابة الدخول الوحيدة لتغيير قواعد اللعبة لصالحها، والتي كان الغرب يرفضها بقوة، فيما سيف适用 الطرف عنها اليوم أمام تسهيلات تركية عسكرية مهمة له في العراق، والذي اتضحت فيها أن الغرب يخفى حقيقة عجز كامل النظام ومليشيات الحشد الطائفي عن إيقاف داعش فيه.

ولذلك فإن توجيهه مواقف المحاور على الأرض سيكون دقيقاً جداً و مختلفاً في بعض مساراته عن عناوين التحالف الفضفاضة، وستترك للمخابرات العسكرية صياغتها، وليس لغة الإعلام والتصريحات السياسية.

ويسعى المحور الغربي والروسي مع إيران إلى نزع أكبر دعم من تركيا لعمليات نوعية ضد جبهة النصرة وأحرار الشام، فيما تقصف قواتهم تشكيلات مختلفة من الثورة السورية تحت مسمى حرب داعش، خاصة جيش الفتح، فلا معتدلين لدى هذا المحور إلا مفارز لا تذكر تحارب داعش تنسيقاً مع النظام.

وليس من المتوقع فتح أنقرة هذه المساحات للغرب بل العكس، فمن صالحها ترسيخ المنطقة الآمنة ووضعها تحت قوة ثورية مأمونة، لكن الميدان في ظل هذه الحسابات لا يضبط بمستوى دقيق كما يظن البعض، بل تفتح بعض الجغرافيا وتخالط بعض الواقع، ولكن يبقى الخيار هو نجاح أنقرة في تنفيذ المنطقة الآمنة على الأرض، واضطرار الغرب للقبول بها وتأمين سلاح الجو التركي لها.

فهل هذا يعني مقابل ذلك فتح نار القصف والاجتياح من التحالف الغربي الإيراني على مناطق السنة ومدن التمرد الوطني في العراق؟

نقول نعم بوضوح، وإدارة هذا الواقع الصعب جداً تتطلب موازنات صعبة وترجيح خيارات الضرورات لتأمين العبور من هذه المرحلة بسلامة أهلها بأكبر قدر ممكن من المفاوضات السياسية بين العشائر والأطراف المختلفة وتحييد الحشد الطائفي عنها.

أما الخليج العربي فهو قوة دعم يتنازعه كلاً المحورين، ورغم وضوح أين تقف مصالحه - حيث إن نجاح الترويكا الغربية الإيرانية يعني وضع موقفه الداخلي والجغرافي في مهب الريح ولذلك مساندة وتطبيق ما طلبته جون كيري كارثة جلية - فإن الخليج العربي اليوم ليس محوراً واحداً أبداً، والانقسام بين الرؤيتين موجود بقوة لدرجة الشراكة الكاملة لطرف منه مع كامل الترويكا.

وهنا يأتي دور حسابات المنطقة في لعبة الكراسي الدوارة، هل تدور مع هذا المحور حتى يسقط الكرسي المستهدف ثم يسقطك، أم تشارك مع المحور الآخر لخلق قواعد لعبة لتأمين سوريا المستقلة والعراق العربي لضمان أنهما وأمنك قبل أن تحتفل تل أبيب وطهران بتقسيم أرضك!

